قراءة في تفسير ابن كثير

# سورة الحشر

أ. أناهيد بنت عيد السميري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

## تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعل القرآن الكريم ربيعًا لقلوبنا ونورًا لصدرونا وجلاءً لأحزاننا وهمومنا، اللهم آمين.

لا زلنا نتدارس سويًا هذه السورة العظيمة؛ سورة الحشر. وكنا قد مررنا على مفاهيم عظيمة تظهر آثار اسم الله الباطن، وآثار اسم الله الظاهر:

فقد بيّن -عزَّ وجلَّ- أنه يعلم السر والنجوى.

بيّن -عزَّ وجلَّ- أنه مطلع على ما في أفئدة الكافرين، كما أنه مطلع على ما في قلوب المؤمنين.

بيّن لنا رب العالمين كيف أنه -سبحانه وتعالى- الظاهر الذي يظهر عباده المؤمنين على الكافرين، ويفسد مكر الماكرين، ويذهب بقوى الكافرين.

هو المطلع -سبحانه وتعالى- على ما في قلوب أهل النفاق، فعجّب رسوله -صلَّى الله عليه وسلَّم- من حالهم، وكيف أنهم

يعطون إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب وعودًا؛ لئن أخرجكم المسلمين سنخرج معكم ولن نطيع فيكم أحدًا، وإن قاتلكم المسلمين قاتلنا معكم، والله الباطن يشهد أن بواطنهم تحمل خلاف هذا الأمر وأنهم في هذا من أهل الكذب.

يخبر -عزَّ وجلَّ- وهو الباطن (بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) أنهم إذا خرجوا لن يخرجوا معهم، وأنهم إذا حصل وقوتلوا لن ينصروهم، وأنهم إذا أظهروا أنهم سينصرونهم في الحقيقة أنهم سيولون الأدبار، والله لن ينصر هؤلاء على أهل الإيمان.

أخبر الله الظاهر الباطن أنه سينصر أهل الإيمان عليهم، أخبر الله الظاهر الباطن أنكم (أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ) يكشف لنا رب العالمين ما في صدورهم.

أخبر -عزَّ وجلَّ- عن الجبن الذي في قلوبهم، وهو المطلع على ما في قلوبهم -سبحانه وتعالى- أنهم لا يقاتلون أبدا (إِلا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ). هم حالتهم مركبة عجيبة! يتظاهرون بالبأس مع إضمارهم الخوف من المسلمين. أهل النفاق مع أهل الكتاب بينهم تفرّق، بل إن بأسهم على بعضهم شديدًا، أهل النفاق يخذلون أهل الكتاب عند حاجتهم، جبناء لا يقاتلون المسلمين (إِلا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ)، هذه

الحال مطلع عليها رب العالمين وهو الظاهر؛ يظهر المسلمين عليهم، وهو الباطن؛ كشف ما في نفوسهم -سبحانه وتعالى- من أنهم يتظاهرون بأن لهم بأسًا وأنهم يريدون أن يقاتلوا وهم يضمرون الخوف، يظهرون أنهم جميعًا وهم في الحقيقة متفرقون، أهل النفاق يعدون اليهود بالنصرة وهم في الحقيقة يبطنون الخذلان لهم.

كل هذه شواهد عظيمة، على أن ربنا -سبحانه وتعالى- الظاهر الباطن، وهذا يزيدنا خوفًا وتقوى، نتقي الله متيقنين أنه -عزَّ وجلَّ- مطلع على ما في نفوس الخلق، وأنه الظاهر -سبحانه وتعالى- الذي يخرج ما في النفوس ويظهره، ويظهر أهل الحق على أهل الباطل، يظهر أهل الإيمان على أهل الكفر ولو بعد حين.

ثم إن الله -عزَّ وجلَّ- ضرب مثلين في هذه السورة لهذه الحال التي أظهرها لنا؛ مَثل في الآية الخامسة عشر ومَثل في الآية السادسة عشر، نقرأ الآيات حتى الآية السابعة عشر:

(كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (15) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ)

هذه الآيات المباركات فيها مَثل ضُرب لعلاقة المنافقين باليهود، فكان المثل الأول إشارة إلى قوم مثل هؤلاء -وسنرى مثلهم في أي شيء- والمثل الثاني إشارة إلى علاقة الشيطان بالإنسان. نقرأ المثل الأول في الآية الخامسة عشر من تفسير ابن كثير:

ثُمَّ قَالَ: (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) قَالَ مُجَاهِدٌ، وَالسُّدِّيُّ، وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: [يَعْنِي] كَمَثَلِ مَا أَصَابَ كُفَّارَ قُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) يَعْنِي: يَهُودَ بَنِي قَيْنُقَاعَ. وَكَذَا قَالَ قتادة، ومحمد ابن إِسْحَاقَ.

وَهَذَا الْقَوْلُ أَشْبَهُ بِالصَّوَابِ، فَإِنَّ يَهُودَ بَنِي قَيْنُقَاعَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- قَدْ أَجْلَاهُمْ قَبْلَ هَذَا.

من هم (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ)؟ هؤلاء اليهود من بني النضير فيما نزل بهم من العقوبة كمثل من نالهم سابقًا جزاء بغيهم. من هم الذين نالهم جزاءهم من قبل؟ ذكر ابن كثير قولين:

- كفار قريش في وقعة بدر.
- أو يهود بني قينقاع.

واختار يهود بني قينقاع، كان الرسول قد أجلاهم قبل هذا، ولهم قصة، ورد في السير، ومن ذلك قول قتادة، أن بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم-، وحاربوا في المدة التي بين بدر وأحد، وذكرت في السير قصة امرأة من العرب أتت للسوق وباعت في سوق بني قينقاع، ثم جلست إلى صائغ في السوق، فجعلوا يراودونها عن كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها -مكر بها وهي جالسة غير متنبهة فعقد طرف ثوبها إلى ظهرها- بحيث أنها إذا قامت انكشفت سوأتها. وهذا ما حصل، فضحك اليهود فصاحت فوثب أحد المسلمين على الصائغ فقتله، والصائغ يهودي، فاجتمع اليهود على الرجل الذي قتل الصائغ فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم الذي قُتل المسلمين على اليهود فغضب المسلمين فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع؛ فحاصرهم الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- حتى نزلوا على حكمه فأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى الشام.

فهذه قصة القوم الذين قبلهم، فكان هؤلاء مثلهم، (ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ) هذا قول.

وقول آخر أنها وقعة بدر التي كانت قبل جلاء بني النضير، وهذا ما اختاره ابن جرير الطبري؛ أن هذه الآية

تصلح لغزوة بدر، وتصلح لبني قينقاع، فإن الله -عزَّ وجلَّ- مثّل هؤلاء الكفار من أهل الكتاب وما ذاقهم من نكال بالذين من قبلهم من مكذبي رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم-؛ الذين أهلكهم بسخطه، سواء كانوا بني قينقاع أو المشركين في وقعة بدر، كل أولئك (ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ).

فالطبري يرى أن الآية غير مخصصة، وإنما كل الذين خالفوا الرسول ذاقوا وبال أمرهم، إشارة إلى أن الله الظاهر الذي يظهر دينه، الظاهر على خلقه، الظاهر لدينه وإن امتد الزمان كأن أهل الباطل هم الظاهرين، لكن الله الظاهر يختبر أهل الإيمان في يقينهم، ويظهرهم -سبحانه وتعالى- وقتما يشاء، وأهل الكفر ذائقو وبال أمرهم ذائقون، قربت مدتهم أو بعدت، كما في هذه الآية العظيمة.

فانظر إلى كل من سبق في الأزمنة المتتالية؛ كيف لما خالفوا الرسل (ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

بهذا انتهينا من المثل الأول، نناقش المثل الثاني:

وَقَوْلُهُ: (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ) يَعْنِي: مَثَلُ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ فِي اغْتِرَارِهِمْ بِالَّذِينِ وَعَدُوهُمُ النَّصْرَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَقَوْلِ الْمُنَافِقِينَ لَهُمْ: (وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ) ثُمَّ لَمَّا حَقَّتِ الْحَقَائِقُ وجَدَّ بِهِمُ

الْحِصَارُ وَالْقِتَالُ، تَخَلَّوْا عَنْهُمْ وَأَسْلَمُوهُمْ لِلْهَلَكَةِ، مِثَالُهُمْ فِي هَذَا كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ سَوَّلَ لِلْإِنْسَانِ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-الْكُفْرَ، فَإِذَا دَخَلَ فِيمَا سَوَّلَهُ تَبَرَّأَ مِنْهُ وَتَنَصَّلَ، وَقَالَ: (إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ).

هذا المثل الثاني الذي بيّن الله -عزَّ وجلَّ- فيه موقف المنافقين في إغراء بني النضير على القتال ووعدوهم بالنجدة أو الخروج معهم، في المقابل انخدع بنو النضير بوعد أولئك الكاذبين. إذًا المثل الثاني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين الذين قالوا لهم: (إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ) لكن "لَمَّا حَقَّتِ الْحَقَائِقُ وجَدَّ بِهِمُ الْحِصَارُ وَالْقِتَالُ، تَخَلَّوْا عَنْهُمْ" مثالهم في هذا الموقف كمثل الشيطان سوّل للإنسان -والعياذ بالله- الكفر (إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ) الشيطان غر إنسانًا ووعده على اتباعه وكفره بالله، النصرة عند الحاجة. وهذه من أحوال الشياطين مع الإنسان؛ أنهم يقولون له: "لو تركت ما أمرك الله، لو خالفت ما أمرك الله ستجد خيرًا، وإن ما أمرك الله به لن يأتي بخير!" وهذا الإغراء من الشيطان وسيلته الدائمة وحيلته القائمة التي لا تتغير في كل الأزمنة. وهذا يجعلنا -حين نقرأ هذه الآية- في حذر، ويجعلنا أيضًا متعجبين من هذا الكتاب العظيم الذي وصف حتى حِيل عدونا الشيطان بكل تفصيل. وهنا انظر

للآية على أنها لا تخص حادثة معينة، أن وسوسة الشيطان لإنسان معين في الدنيا، بل انظر إليها بصفة عامة وتصور كل المواقف التي تدخل تحتها. حال اليهود مع المنافقين؛ كحال الإنسان مع الشيطان، يغره أنه سيعينه فإذا وقع في المخالفة خذله.

متى يقول له (إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ)؟ الذي يظهر -والله أعلم- أن الشيطان يقول للإنسان في الدنيا: "اكفر، خالف، اترك الأمر، رابي، تبرجي، طلِّق..." كل المعاصي والذنوب والكبائر، إلى أن يجر الناس إلى الكفر والعياذ بالله. يقول للإنسان في الدنيا: "اكفر" فحين يكفر، أو يفعل المعصية، ويوافي القيامة، يصل القيامة على كفره أو على كبيرته يقول الشيطان يوم القيامة: (إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ)، كل شيطان يقول لقرينه من الإنس: (إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ) طمعًا في أن يكون ذلك منجيًا له من العذاب. هذا يظهر في سورة ق: (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ) هذه المحاجة -والله أعلم- تقع يوم الجزاء، وبعد موت الكافر على كفره دون أن يسلم، وبعد موت العاصي على معصيته دون أن يتوب. هنا دخولهم النار وخلودهم فيها هذا أكيد أنه للكافر الذي يموت على كفره، فستكون عاقبة الفريقين أنهما خائبان، مصيرهما إلى النار، خسران مبين، وكذلك عاقبة هذين الفريقين؛ يهود بنو النضير والمنافقون، عاقبتهما الخيبة فيما

دبروا وكادوا للمسلمين، وبهذا نتصور أن شياطين الإنس وشياطين الجن ما وظيفتهم ودورهم؟ وظيفتهم ودورهم أن يؤيدوا الطرف الثاني الذي هم مشتركون معهم في حب الشر، يثيرون الشر في نفس الطرف الثاني فيؤيدون ويدعمون حتى إذا وقع الطرف الأول في الذنب وفي المعصية وفي الكبيرة وفي الكفر، وفي كل ما يتصور الإنسان من آثام، تخلى عنه مباشرة.

فلا تستعجب -وإن كان هذا ليس له علاقة بالكفر لكنه النموذج الواضح الذي أعلاه أن يدخل الإنسان في الكفر والأدنى كل ما يتصور الإنسان من ذنوب ومعاصي- أن تكون المرأة مستقرة في بيتها، صابرة على شؤون حياتها -والحياة لا تكمل لأحد- وراضية بما قسم لها الله وتثيرها هذه أو هذه حتى تخرجها من بيتها مطلقة! نقص عليها شؤون كثيرة في حياتها، فقدت رعاية أولادها، أو أي شأن من هذه الشؤون من آثار أنها استجابت لتلك، ثم إذا صار هذا حالها تخلت عنها بكل سهولة!

فهذا مثل مضروب لهذه الحالة الخاصة وهي اغترار اليهود بالمنافقين، لكن دلالة هذا المثل عامة وهي: أن شياطين الإنس والجن هذا حالهم؛ يأتون للإنسان الذي عنده استعداد للشر ويبذلون جهودهم معه حتى يدخلوه في عين

الشر، ومن ليس عنده استعداد للشر، يحاولون معه كما يحاولون مع كل الناس، والناس يأخذون أوقاتًا مختلفة، لكن لا ينجو إلا من يستعيذ بالله من شياطين الإنس والجن، ويقطع الطريق عليهم.

شيء عجيب في الآية أن الشيطان -الذي هو مصدر الشر- يقول: (إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) يدّعي أنه يخاف الله، يتبرأ ويظن أن تبرأه ينفعه، فلا تبرؤه ينفعه، كما أن الأول لا ينفعه الوعد بالإعانة فيكون كلاهما في النار.

وهذه الآية تشير إلى معنى أن الذي يقول: "أريد أن أعبد الله بدون خوف، أريد أن أعبده محبة ورجاء فقط" نقول: حتى الشيطان يقول: (إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ). حتى هذه الحالة يقولها الشيطان، معنى ذلك أن عبادة الله بالرجاء وحده ليست دينًا، إنما الدين هو الجمع بين الخوف والرجاء.

ذكر ابن كثير قصتين من باب المثل على هذه الآية:

وقد ذكر بعضهم هاهنا قِصَّةً لِبَعْضِ عُبَّادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ هِيَ كَالْمِثَالِ لِهَذَا الْمَثَلِ، لَا أَنَّهَا الْمُرَادَةُ وَحْدَهَا بِالْمَثَلِ، بَلْ هِيَ مِنْهُ مَعَ غَيْرِهَا مِنَ الْوَقَائِعِ الْمُشَاكِلَةِ لَهَا، فَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ:

حَدَّثَنَا خَلَّادُ بْنُ أَسْلَمَ، أَخْبَرَنَا النَّضْرُ بْنُ شُمَيْل، أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ نَهِيك قَالَ: سَمِعْتُ

عَلِيًّا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: إِنْ رَاهِبًا تَعَبَّدَ سِتِّينَ سَنَةً، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ أَرَادَهُ فَأَعْيَاهُ، فَعَمَدَ إِلَى امْرَأَةٍ فأجنَّها وَلَهَا إِخْوَةٌ، فَقَالَ لِإِخْوَتِهَا: عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقَسِّ فَيُدَاوِيَهَا. قَالَ: فَجَاءُوا بِهَا إِلَيْهِ فَدَاوَاهَا، وَكَانَتْ عِنْدَهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَوْمًا عِنْدَهَا إِذْ أَعْجَبَتْهُ، فَأَتَاهَا فَحَمَلَتْ، فَعَمَدَ إِلَيْهَا فَقَتَلَهَا، فَجَاءَ إِخْوَتُهَا، فَقَالَ الشَّيْطَانُ لِلرَّاهِبِ: أَنَا صَاحِبُكَ، إِنَّكَ أَعْيَيْتَنِي، أَنَا صَنَعْتُ هَذَا بِكَ فَأَطِعْنِي أُنَجِّكَ مِمَّا صَنَعْتُ بِكَ، فَاسْجُدْ لِي سَجْدَةً. فَسَجَدَ لَهُ، فَلَمَّا سَجَدَ لَهُ قَالَ: إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ).

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمَسْعُودِيُّ، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ عُمَارَةَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) قال: كانت امْرَأَةٌ تَرْعَى الْغَنَمَ، وَكَانَ لَهَا أَرْبَعَةُ إِخْوَةٍ، وَكَانَتْ تَأْوِي بِاللَّيْلِ إِلَى صَوْمَعَةِ رَاهِبٍ. قَالَ: فَنَزَلَ الرَّاهِبُ ففجر بِهَا، فَحَمَلَتْ، فَأَتَاهُ الشَّيْطَانُ فَقَالَ لَهُ: اقْتُلْهَا ثُمَّ ادْفِنْهَا، فَإِنَّكَ رَجُلٌ مُصدَّق يسمع قولك. فقتلها ثم دفنها. قَالَ: فَأَتَى الشيطانُ إِخْوَتَهَا فِي الْمَنَامِ فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ الرَّاهِبَ صَاحِبَ الصَّوْمَعَةِ فجر بِأُخْتِكُمْ، فَلَمَّا أَحْبَلَهَا قَتَلَهَا

ثُمَّ دَفَنَهَا فِي مَكَانِ كَذَا وَكَذَا. فَلَمَّا أَصْبَحُوا قَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ الْبَارِحَةَ رُؤْيَا مَا أَدْرِي أَقُصُّهَا عَلَيْكُمْ أَمْ أَتْرُكُ؟ قَالُوا: لَا بَلْ قُصَّهَا عَلَيْنَا. قَالَ: فَقَصَّهَا، فَقَالَ الْآخَرُ: وَأَنَا وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ ذَلِكَ، فَقَالَ الْآخَرُ: وَأَنَا وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ ذَلِكَ. فَقَالُوا: فَوَاللَّهِ مَا هَذَا إِلَّا لِشَيْءٍ. قَالَ: فَانْطَلَقُوا فَاسْتَعْدَوْا مَلِكَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الرَّاهِبِ، فَأَتَوْهُ فَأَنْزَلُوهُ ثُمَّ انْطَلَقُوا بِهِ فَلَقِيَهُ الشَّيْطَانُ فَقَالَ: إِنِّي أَنَا الَّذِي أَوْقَعْتُكَ فِي هَذَا، وَلَنْ يُنْجِيَكَ مِنْهُ غَيْرِي، فَاسْجُدْ لِي سَجْدَةً وَاحِدَةً وَأُنْجِيكَ مِمَّا أَوْقَعْتُكَ فِيهِ. قَالَ: فَسَجَدَ لَهُ، فَلَمَّا أَتَوْا بِهِ مَلِكهم تَبَرأ مِنْهُ، وأُخِذَ فَقُتِلَ.

وَكَذَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَطَاوُسٍ، وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ، نَحْوُ ذَلِكَ. وَاشْتُهِرَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّ هَذَا الْعَابِدَ هُوَ بَرْصِيصَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَهَذِهِ الْقِصَّةُ مُخَالِفَةٌ لِقِصَّةِ جُرَيج الْعَابِدِ، فَإِنَّ جُرَيْجًا اتَّهَمَتْهُ امْرَأَةٌ بَغي بِنَفْسِهَا، وَادَّعَتْ أَنَّ حَملها مِنْهُ، وَرَفَعَتْ أَمْرَهُ إِلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ، فأمر به فأنزل من صومعته وخُربت صَوْمَعَتُهُ وَهُوَ يَقُولُ: مَا لَكُمْ؟ مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: يَا عَدُوَّ اللَّهِ، فَعَلْتَ بِهَذِهِ الْمَرْأَةِ كَذَا وَكَذَا. فَقَالَ: جُرَيْجٌ: اصْبِرُوا. ثُمَّ أَخَذَ ابْنَهَا وَهُوَ صَغِيرٌ جِدًّا ثُمَّ قَالَ: يَا غُلَامُ، مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ أَبِي الرَّاعِي -وَكَانَتْ قَدْ أَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَحَمَلَتْ مِنْهُ-فَلَمَّا رَأَى بَنُو إِسْرَائِيلَ ذَلِكَ عَظَّمُوهُ كُلُّهُمْ تَعْظِيمًا بَلِيغًا

وَقَالُوا: نُعِيدُ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ: لَا بَلْ أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ، كَمَا كَانَتْ.

ذكر ابن كثير قصتين كالنموذج -إن صحت- وهي من قصص بني إسرائيل، ولنا مع قصص بني إسرائيل طريقة؛ أننا لا نصدقها ولا نكذبها، وحتى لو سمعناها نقول إنها تنفع كمثال أو كنموذج وإن كنا لا نستطيع أن نقرّ أنها وقعت بالتفصيل، هذان القصتان واضحتان في كون أن الشيطان يغري الإنسان ويوقعه في الآثام، وأكد ابن كثير أن هذه القصة غير قصة جريج العابد الذي كان من حاله أنه آية من آيات الله في الشهادة لأوليائه حيث نطق الرضيع، وهي قصة ثابتة في السنة.

وَقَوْلُهُ: (فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا) أَيْ: فَكَانَتْ عَاقِبَةُ الْآمِرِ بِالْكُفْرِ وَالْفَاعِلِ لَهُ، وَتَصَيُّرُهُمَا إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدَيْنِ فِيهَا، (وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ) أَيْ: جَزَاءُ كُلِّ ظَالِمٍ.

بهذا يفهم أن مساندة أهل الباطل للباطل وهْم، أن مساندة الشيطان للإنسان وهْم! يعززه ويدفعه حتى يقع ثم يتخلى عنه!

هذا الخبر المهم؛ وهو أن شياطين الإنس والجن لا يتركون أهل الإيمان على إيمانهم، ولا يتركون أهل العفاف على عفافهم، ولا يتركون أهل النزاهة والطهارة على طهارتهم، إنما يبغضون هذا فيكررون ويعيدون عليهم الإغراءات ويعدونهم الوعود حتى يوقعوهم. فلتكن هذه الآيات الكريمات بين أعيننا ولنحذر من إغراءات شياطين الإنس والجن، ولنحذر من تمهيداتهم وخطواتهم التي يسحبون بها الإنسان حتى يقع في الفخ، ثم يتركونه يواجه مصيره وحده وهم متخلين عنه، ماذا يفعل هؤلاء؟ حتى لو ناصروا ابن آدم، ماذا سيفعلون والله هو الظاهر المتمكن من خلقه -سبحانه وتعالى- بيده الملك.

ينتهي هذا السياق ثم تبتدئ خاتمة السورة. ينتقل السياق من:

- الامتنان على المسلمين بما يسر الله من فتح قرية بني النضير بدون قتال.
- وما أفاء الله على رسوله -صلَّى الله عليه وسلَّم- منهم.
- ووصف ما جرى من خيبتهم وخيبة آمالهم في نصرة المنافقين، ومن الإيذان بأن عاقبة القرى الباقية كعاقبة أسلافهم.

ينتقل السياق من هذا إلى الأمر بتقوى الله؛ شكرًا له -سبحانه وتعالى- على ما منح وما وعد من صادق الوعد، فالشكر واجب على العبد في كل حين خاصة حين تقع عليه نعمة ربه، والعبد لا يستطيع أمام عطاء رب العالمين إلا أن يكون شاكرًا، والشكر في ديننا يكون بالقلب واللسان والبدن، فالعمل الصالح من شكر الله -عزَّ وجلَّ- ومن هذا التقوى التي يأمر الله -عزَّ وجلَّ- في ختام هذه السورة العظيمة، أمر بها أهل الإيمان، فالسورة تضمنت تأييد الله لأهل الإيمان، وفيض نعمه عليهم، وكم من منافع الدنيا أعطاها الله -عزَّ وجلَّ- لأهل الإيمان، ومن خيرات الدنيا أعطاها الله -عزَّ وجلَّ- لأهل الإيمان، لما أعطاهم الدنيا والفيء أمرهم أن ينظروا لما قدمت أيديهم للغد القادم؛ لأن الدنيا فانية وستمر أسرع ما تكون، أنعم الله عليكم لتكونوا من الشاكرين، لكن لا تنشغلوا بما أنعم عليكم، اعلموا أن ما أنعمه عليكم إنما لأجل أن تقوموا بوظيفتكم ومهمتكم من تقوى ربكم، لا أن تنشغلوا بهذا الذي أعطاكم الله إياه عن مهمتكم وهي: الاستعداد لما أمامكم.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (19) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ)

هذه الآيات الكريمات يأمرنا رب العالمين فيها بالتقوى بعدما أخبرنا عن أحوال هؤلاء، ونلاحظ أقرب الآيات المثَل الذي ضُرب للشيطان وكيف أنه يمهد للإنسان أن يقع في الكفر، وكيف أنه يخطو به خطوات ليخرجه من الإيمان، فكانت هذه الآيات التي فيها أمر بالتقوى مناسبة كخاتمة للسورة عمومًا؛ أنه بعدما أفاء الله عليكم وأعطاكم وكذا من الأمور التي حصلت ومكر بأعدائكم، كونوا أتقياء واستعدوا لما أمامكم.

ويصلح أن تكون لها علاقة مباشرة بالآيات التي سبقت، فيا أيها الذين آمنوا بمقتضى إيمانكم لا تأمنوا مكر الله، اتقوا الله واحذروا من أن تطمئنوا لأنفسكم، فإن الإنسان إن لم يكن له حبل من الرحمن، سُلطت عليه نفسه والشيطان فأوقعه في الكفر ثم يتبرأ منه.

نعوذ بالله من تسلط الشيطان ومن إعراض الرحمن، نعوذ بالله أن نطرد من جنابه، وأن نقع فيما يسخطه، سبحانه.

فلنكن على حذر، ولنكن مظهرين شدة حاجتنا وفقرنا لتوفيقه، ولنقرأ سورة الفاتحة في صلواتنا ونحن صادقين في طلبه الصراط المستقيم. نطلبك يا ربنا أن تجعلنا على

الصراط المستقيم وأن تثبتنا على هذا الصراط المستقيم، وتحفظنا حفظًا تامًا من الشياطين، اللهم آمين.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.